روديجر
فون فريتش

تقلُّب الأزمنة

حرب بوتين وعواقبها

aufbau

مقدمة

"إنهم يواصلون البحث عن النازيين الوهميين، الذين يُفترض أنهم يريدون حماية شعبنا منهم، وما زالوا غير قادرين على العثور على أوكرانيين يستقبلونهم بالزهور." كانت حرب بوتين ضد أوكرانيا قد استمرت بالفعل لعدة أسابيع، عندما قام الرئيس الأوكراني زيلينسكي في واحدة من تلك الخُطب الليلية المصورة، التي أصبحت أسطورية، بتلخيص مُعضلة العدوان الروسي برمتها من خلال تلك الكلمات. ثم أضاف فولوديمير زيلينسكي: "لن نرضخ للتهديدات الروسية".

عندما أطلق فلاديمير بوتين انتشارًا عسكريًا واسع النطاق على الحدود الروسية الأوكرانية في أواخر عام 2021 كان السياسيون والمحللون في جميع أنحاء العالم يأملون - وربما يتوقعون - أن يقصر بوتين ذلك على مجرد التهديد. تمثّل الافتراض آنذاك في أنه أراد من خلال ذلك التهديد الضغط لتحقيق أهداف أخرى كان قد طلبها من الغرب في 17 ديسمبر 2021. كما شارك العديد من المراقبين في موسكو أيضًا نفس هذا التقييم، إلى أن تطورت الأمور.

من المرجح أيضًا أن يكون ممثلو القيادة السياسية للبلاد قد افترضوا أن رئيسهم سوف يتبع نمطًا كلاسيكيًا معروفًا في السياسة السوفيتية والروسية، ألا وهو استخدام أقصى قدر من الضغط لجعل نفسه مسموعًا على المسرح الدولي. لم يملكوا سوى التخمين، تمامًا مثلنا في الغرب. "نحن لا نخطط لشن هجوم. لا نريد حربًا"، هكذا قال السفير الروسي في برلين في مقابلة مع إحدى الصحف الألمانية، ونشر الحوار على موقع سفارته على الإنترنت في 23 فبراير 2022، أي قبل يوم من الهجوم الروسي على أوكرانيا. وبذلك، يكون قد التزم بالتصريحات المتفق عليها في وزارته، ومع وزيره سيرجي

لافروف. تتسم السياسة الروسية بالتعامل مع ما هو مفيد، وليس ما هو صحيح، على أنه حقيقي. لكن المرء لا يحب أن يفتضح أمره عندما تصدر عنه كذبة كبيرة ومباشرة. يفضل المرء ترك الأمر في صورة تهديدات ضبابية، تجعل الكثير من الأشياء تبدو ممكنةً، كما يفعل الرئيس الروسي منذ أسابيع.

ربما فوجئ الدبلوماسيون الروس، وربما سيرجي لافروف نفسه، بالتصعيد، وربما ساورتهم شكوك ـ ضخمة ـ حول ما إذا كان هذا الهجوم على الدولة المجاورة بكل عواقبه يخدم المصالح الروسية حقًا. نعم، ربما أصابهم الفزع. لابد أن الصور المروعة التي انتشرت حول العالم في 3 أبريل لمذبحة السكان المدنيين في بوشا، ولجرائم الحرب التي ارتكبها بكل وضوح الجنود الروس، قد صدمتهم أيضًا؛ وكذلك الهجوم على الفارّين في محطة قطار كراماتورسك، وصور الدمار والقتل من بورودجانكا، واكتشاف المزيد والمزيد من المقابر الجماعية في الأماكن التي احتلتها القوات الروسية. ربما خشوا من ألا تكون تلك آخر الصور – وقد يكون نمى إلى علمهم ما حدث في مدينة ماريوبول، التي تعرضت للقصف والتجويع لأسابيع. ربما عرفوا أن تلك الحرب يمكن أن تدور دائرتها على مَن بدأها. لكن الدبلوماسيين الروس أسرى نظامٍ من التبعية والطاعة والخوف؛ لذلك لجأوا إلى تفسيرات لا حول لها ولا قوة، واتهامات لا أساس لها. وفقًا للتفسير الروسي، فإن أوكرانيا نفسها هي المسؤولة عن الهجوم الذي وقع على أراضيها، وكان الغرب، كما يتم الادعاء دائمًا، هو مَن تسبب في ذلك الهجوم.

لقد أوضحت الحرب ضد أوكرانيا أننا، في حقيقة الأمر، نتعامل مع قرارات رجلٍ واحد. لقد أوضحت اجتماعات فلاديمير بوتين مع كبار قادة بلاده ـ النساء شبه غائبات كليًا عن القيادة ـ قبل الحرب وفي بداياتها ذلك بصورةٍ جلية. بث التلفزيون الروسي في 21 فبراير، بشكل بارز اجتماع هيئة تجتمع عادةً سرًا: مجلس الأمن

القومي، الذي يجلس فيه كل مَن لديه - أو يُفترض أن يكون لديه - سُلطة أو تأثير على حُكم البلاد. جلس الرئيس في مواجهة أولئك المجتمعين في نصف دائرة على مسافة أمامه. وسرعان ما أصبح واضحًا أن هذه لم تكن مشاورات، بل تأييدًا لما تم إقراره بالفعل: الاعتراف بالمنطقتين الانفصاليتين في جنوب شرق أوكرانيا كـ "دولتين مستقلتين".

وأوضح وزير الخارجية لافروف بالتفصيل سبب ضرورة القرار. لقد كان دائمًا قادرًا، في أي وقت ودون تحضير، على شرح كل حقيقة جديدة يختلقها رئيسه، وشرح كل عبارة وتبريرها ببلاغة. قال ميخائيل ميشوستين، رئيس وزراء روسيا، إنهم مستعدون أتم الاستعداد لأي شيء، لكنه نسي أن يقول إنه يرى أن قرار فلاديمير بوتين كان القرار الصائب؛ فما كان من الأخير إلا أن استوقفه. "بصوت أعلى قليلاً، من فضلك"، هكذا نبّه الرئيس دميتري كوزاك، ممثله الخاص في النزاع الأوكراني وذراعه الأيمن في الأمور المعقدة.

وأخيرًا عندما اضطر سيرجي ناريشكين للتحدث، تحوّل اللقاء إلى ما يُشبه تجمُّع لتلاميذ المدارس والأشخاص المستأجرين للتصفيق على ما يُقال. عندما تحدثت الدوائر الدبلوماسية في موسكو عمن يمكن أن يحل محل الرئيس بسرعة إذا أصبح ذلك ضروريًا، كان أيضًا اسم ناريشكين يُذكر دائمًا. رجل ذو ثقافة عالمية، يتحدث الانجليزية والفرنسية بطلاقة. كان رئيسًا للبرلمان ثم عُين رئيسًا لجهاز المخابرات الخارجية القوي SWR. كان هذا بمثابة التكريم له - منذ ذلك الحين أصبح ينتمي إلى الدائرة الأعمق. يومها وقف هناك، مترددًا ومرتبكًا، وكان لابد أن يقول لفلاديمير بوتين رأيه: "ماذا ترى؟!؟ هل من المفترض أن نبدأ عملية تفاوض؟؟" و: "هل ستؤيد الاقتراح أم أنك تؤيده؟!؟". فأجاب مدير المخابرات بأنه يؤيد الاقتراح؛ وبدى عليه الاضطراب أكثر. ثم كان لابد من أن يصحح

ما قال: "لن نتحدث عن ذلك اليوم. أنا أؤيد اقتراح الاعتراف" - "حسنًا، تفضل بالجلوس."

لم يُشبه ذلك الاجتماع اجتماعات المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي من العهد السوفيتي، حيث نجحت شخصيات قوية وواثقة من نفسها مثل وزير الخارجية أندريه جروميكو في اتخاذ موقف مُغاير لموقف أمينه العام ليونيد بريجنيف خلف الأبواب المغلقة، كما لم يشبه ذلك الاجتماع الاجتماعات التي كان ممكنًا فيها ببساطة استبدال أمين عام بآخر. هنا، اتخذ رجل قرارًا، ربما يكون في أحسن الأحوال قد ناقشه مع أقرب أتباعه، ثم أعلنه لأعضاء مجلس الأمن القومي، وأجبرهم على التصفيق له علنًا على الفور. كان سيرجي ناريشكين، مثل سكرتير مجلس الأمن، المتشدد نيكولاي باتروشيف، قد ناشد في الأيام السابقة أنه "يجب إعطاء الغرب فرصة أخيرة". ما كان بوسعه أن يفعل ذلك بشكل أفضل: دفعه فلاديمير بوتين إلى "تفكيك نفسه" أمام الكاميرات، من خلال التراجع عن موقفه.

بعد ستة أيام - كانت الحرب على قدم وساق - جلس الرئيس على أحد تلك الطاولات الطويلة التي اشتهرت بعد ذلك، وأمامه وزير دفاعه سيرجي شويجو، والقائد العام للقوات المسلحة الروسية فاليري جيراسيموف. إذا كان من الممكن أن يبدوا كبار الضباط مرتبكين، فهذا بالضبط ما حدث لهذين الشخصين عندما أمرهما فلاديمير بوتين بوضع "قوات الردع" - كما تسمى القوات النووية للجيش الروسي - في حالة تأهب قصوى. في تلك اللحظة، ربما كان الضابطان يأملان في شيء واحد فقط: أن يكون رئيسهما يلعب اللعبة القديمة للسياسة الخارجية السوفيتية والروسية: إذا قُمت بشيء يثير غضبًا دوليًا، فعندئذٍ قُم بخطوة إضافية، واتهم الطرف الآخر بشدة أنه يتحمل مسئولية كل شيء. يطلق على تلك الاستراتيجية "إلقاء اللوم العكسي". إذا كنت محظوظًا، سيبدأ الطرف الآخر في التفكير فيما

إذا كان مُخطئًا فعلًا. عندما تابعتُ بعض المحادثات في موسكو بعد ضم شبه جزيرة القرم في عام 2014، انتابني شعور وكأننا نحن الذين قُمنا بغزو شبه الجزيرة وليس روسيا. ذات مرة، سألتُ الخبيرة الألمانية في شؤون أوروبا الشرقية سابينه فيشر الرئيس فلاديمير بوتين في أثناء نقاش عما إذا كانت بلاده قد ارتكبت أخطاء. أجاب الرئيس الروسي دون تفكير: "أكبر خطأ ارتكبناه هو أننا وثقنا بكم كثيرًا"، مضيفًا: "وخطأكم هو أنكم فسرتم تلك الثقة على أنها ضعف". وتم بذلك على الفور إلقاء المسئولية على الطرف الآخر.

في فبراير 2022، كان فلاديمير بوتين منفصلاً إلى حد كبير عن قادة بلاده - وكذلك عن الواقع - منذ عامين تقريبًا. ربما لم يقم أي رئيس دولة آخر بحماية نفسه من العالم الخارجي بشكل محكم، أو حتى بدافع الخوف، خلال جائحة كورونا، مثل ما فعل الرئيس الروسي. كان على المحاربين القدامى الذين أراد مقابلتهم أن يخضعوا للحجر الصحي لمدة أسبوعين مسبقًا؛ كان على كل زائر للرئيس الخضوع لفحوصات مختلفة وتعقيم شامل. نادراً ما وصل إليه الخبراء والمستشارون الذين كان يتبادل معهم الأفكار في الماضي، وتدخل الرئيس بشكل أقل وأقل في الأحداث اليومية. ترك مكافحة الجائحة والمخاوف الاقتصادية واحتياجات المواطنين بالكامل للحكومة. وفي المقابل انغمس في شغفه: التاريخ والجغرافيا السياسية.

في صيف عام 2021، نشر فلاديمير بوتين أطروحةً مطولةً، عبّر فيها عن نظرة غريبة للعالم، بهدف إعداد وتبرير تحركاته اللاحقة. شرع الرئيس الروسي في مهمة تاريخية - لتحقيق ما تدَّعي روسيا أنه قَدَرها، وليؤمِّن لنفسه مكانًا في تاريخ البلاد والعالم. وأراد أن يتم له ذلك ولو بطريقة بشعة.

*

انتهى عملي بوصفي سفيرًا لبلادي في موسكو في 30 يونيو 2019. شكَّل السنوات الخمس التي قضيتها هناك العدوانُ الروسي في عام 2014 - ضم شبه جزيرة القرم، والحرب الرهيبة في جنوب شرق أوكرانيا، والتي أودت وحدها بحياة 14 ألف شخص منذ بدايتها وصولًا إلى الوقت الذي اتسعت فيه دائرة الحرب في عام 2022. شغلني خلال ذلك الوقت أمران أساسيان: أن أُظهر بوضوح أن ما تقوم به روسيا هو انتهاك للقانون الدولي، وشرح رد فعلنا عليه، ووضع حدود له، ولكن في نفس الوقت توضيح أننا - الغرب وخاصة ألمانيا - كنا ولا نزال على استعداد لحل النزاع عبر القنوات الدبلوماسية. كما كان متوقعًا، ردت روسيا على العقوبات الغربية بإجراءات مضادة؛ في الوقت نفسه، حاول ممثلوها في أثناء المفاوضات حول النزاع أن يُحققوا مصالح بلدهم. تلك كانت قواعد السياسة.

بعيدًا عن النزاع، كَرّستُ أنا وزوجتي الفترة التي أمضيناها في موسكو لمحاولة فعل أي شيء قد يساعد في الحفاظ على تماسك العلاقات بين الروس والألمان. تم بناء جسور كثيرة: علاقات اقتصادية جيدة، وتبادلات ثقافية ثرية، ولقاءات علمية، وجهود مواطني البلدين لتعميق المعارف والثقة المتبادلة. قمنا برحلات عديدة عبر البلاد وسعينا إلى الحوار في كل مكان - مع الفنانين والكتاب والصحفيين والشباب والعلماء ورجال الأعمال والأشخاص في حياتهم اليومية؛ إذ أن عمل السفير لا يعني فقط التواصل مع المسؤولين في حكومة بلد آخر.

لا يجتمع السفراء عادة برؤساء الدول أو رؤساء الوزراء؛ فأطراف الحوار بالنسبة للسفراء هم الوزراء وممثلوهم ومستشارو الرئيس وأعضاء مجلس النواب. ومع ذلك، فقد قابلت فلاديمير بوتين مرارًا وتكرارًا، وفي المقام الأول عندما رافقت كبار السياسيين

الألمان لإجراء محادثات مع الرئيس. ومع ذلك، فإن الطبيعة الخاصة للعلاقة الألمانية الروسية أتاحت بين الحين والآخر الفرصة لإجراء محادثات مباشرة مع فلاديمير بوتين.

في كتاب "طريق روسيا. بصفتي سفيرًا في موسكو"، الذي نُشر في خريف 2020، تحدثت عن كَمٍ كبير من الانطباعات والتجارب. أردت أن أحكي القصة من خلال تجربتي المباشرة وحاولت تصنيف الأحداث، لكن في نفس الوقت وجّهتُ نظرتي فيما وراء الأحداث اليومية إلى هذا البلد العظيم، الذي غالبًا ما يبدو غامضًا جدًا بالنسبة لنا - بلد ما زالت تربطني به مشاعر ودٍ عميقة.

تشكل المحادثة الأخيرة التي أجريتها مع فلاديمير بوتين في نهاية فترة عملي في موسكو ما يُشبه القوسَين حول هذا الكتاب. أكدت هذه المحادثة الانطباع الذي اكتسبتُه على مر السنين: ربما كان رئيس روسيا في بادئ الأمر مدفوعًا بالرغبة في قيادة بلاده إلى حداثة غربية وجعلها أقرب إلى أوروبا، لكنه في النهاية ظل أسيرًا لنظام استبدادي أوتوقراطي عفا عليه الزمن، وقام هو نفسه بترسيخه. من المؤكد أن تأثره بمسارات حياته لعب دورًا لا يُستهان به، فقد قال بوتين ذات مرة: "إذا كنت يومًا كي جي بي (الاستخبارات السوفيتية)، فستظل دائمًا كي جي بي". في الأحاديث التي أجريتها معه اتضح دائمًا ميله لتصنيف كل شيء إلى فئات فكرية تحمل جميعها طابع الأعمال العدائية والمؤامرات والتهديدات.

العنصر الثاني المهم في تفكير بوتين هو تركيزه على انحدار تلك القوة السابقة وتلك العظمة بسبب انهيار الاتحاد السوفيتي. في خطابه اللافت للنظر في البوندستاج الألماني في عام 2001، والذي كان في أغلبه خطابًا إلى أمته، تحدث الرئيس الروسي عن الحاجة إلى التعامل بانفتاح مع الماضي القريب لروسيا. لكن على مر السنين، تمحور تركيزه بشكل متزايد على قصة كان محورها أن

نهاية الاتحاد السوفييتي كانت هزيمة مروعة تسبب فيها الآخرون. وبلغ الأمر ذروته في جملة قالها بوتين، ويتم اقتباسها كثيرًا، مفادها أن نهاية الاتحاد السوفيتي كانت "أعظم كارثة جيوسياسية في القرن العشرين".

انطلاقًا من هذا المنظور، الذي يركز بالكامل على المعاناة الذاتية وإلقاء اللوم على الآخر، فقد انهارت الإمبراطورية الروسية القديمة في نفس الوقت الذي انهار فيه الاتحاد السوفيتي. إمبراطورية نمت لتصبح قوة أوروبية كُبرى حيث ضمّت المزيد والمزيد من المناطق المحيطة من خلال عمليات الغزو الاستعماري. مع تفكك الاتحاد السوفييتي في عام 1991 فقدت تلك الإمبراطورية أجزاء كبيرة من تلك المناطق. لا يستطيع فلاديمير بوتين تحمُّل تلك الخسارة. ولكنه وهو يحاول تصحيح التاريخ يوشك أن يفشل.

القائد الأوتوقراطي الذي لم يعد خاضعًا لسيطرة أي شخص، والذي يرفض بشكل متزايد الاستماع إلى الاستشارات، والذي أصبحت رؤيته للعالم مشوهة، ولديه وجهة نظر خاصة جدًا عن التاريخ، ويقود خُطاه شعورٌ بالتهديد – هذا كله يفسر الكثير مما عايشه العالم في الأشهر السابقة، منذ نهاية عام 2021. ومع ذلك، وفي الوقت نفسه، يجب أن نكون حريصين على عدم اعتبار أفعال فلاديمير بوتين غير عقلانية، بل وحتى، كما نسمع من البعض أحيانًا، أنها أفعال جنونية. إن تفكيره يتبع نهجًا عقلانيًا، ولكنها عقلانية تختلف تمامًا عن عقلانيتنا. وهذا ما يحتاج إلى التوضيح.

*

كيف وصلت الأمور إلى اندلاع هذه الحرب؟ هل كان ما اضطررنا إلى معايشته أخيرًا أمرًا لا يمكن تصوره وتوقعه حقًا، أم أننا، إذا نظرنا إلى الوراء لوجدنا أن هناك مؤشرات على أن ما حدث كان بالضبط التطور الذي كان متوقعًا؟ يعالج هذا الكتاب تلك

التساؤلات. كما يعالج مسألة كيف يمكننا التعامل مع هذا الاضطراب العميق في نظام السلام الأوروبي، رغم صعوبة تخيل نهج جديد في الوقت الحالي. الجملة الشهيرة للمفكر الإستراتيجي كارل فون كلاوزفيتس، أن الحرب هي استمرار للسياسة مع إشراك وسائل أخرى، لا تعني شيئًا سوى أن السياسة يجب أن تكون لها الأولوية حتى في أوقات الحرب – تلك الحرب التي وقعت أوكرانيا ضحية لها، والتي هي في مجملها موجهة ضد الغرب وضد نظام السلام الدولي.